في الاستشراق المضمر... القدس خلال العصور

أ. د. عبد النبي اصطيف

قد يختلف الباحثون في تعريف مصطلح "الاستشراق"، وفي تحديد طبيعته ووظيفته، وفي توصيف علاقاته المادية والمعنوية التي يقيمها مع منتجِه ومع موضوعه. ولكن ثمة ما يشبه الإجماع على أنه ضرب من المعرفة يُنتجه الآخر (غير الشرقي في الغالب) عن الشرق وأهله: تاريخاً وثقافةً ومجتمعات، وأن هذه المعرفة تُوَظَّف، سواء أتم هذا التوظيف بِعلم مُنتجيها وإقرارهم أم لا، في تدبُّر الشرق: استعماراً، وهيمنة، واستغلال خيرات وثروات، وتأمين مصالح: والإبقاء على تبعية للغرب والانضواء تحت لوائه، وليس أدلّ على صحة هذه الإجماع ما نشهده من عيش الشرق وأهله، في مختلف وجوه حياتهم، في ظل التركة الاستعمارية، وتحوّل الغرب، المستعمِر السابق، إلى الأنموذج الذي يُحتذى في كل شيء، حتى غَدا المِثال والمآل.

والاستشراق الصهيوني لا يختلف عامة، في طبيعته ووظيفته وحدوده، عن الاستشراق الغربي، وإن كانت له خصوصيته المتصلة بموضوعه الذي يحكم إلى حد بعيد وظيفته – ذلك أن موضوعه هو "الشرق" الذي قد يضيق، حتى تقتصر حدودُه على فلسطين التاريخية، ويتسع ليشمل الوطن العربي (الممتد بين دول الطوق المحيطة بفلسطين، ودول الأطراف شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً) والعالم الإسلامي برمته.

وفلسطين التاريخية، التي هي موضوعه في حدوده الدنيا، ليست مجرد مستعمَرة ينهب المستوطنون خيراتها، ويحكمون أهلها، ويحددون مصائرهم فيها، بل هي "وطن موعود" فيما يزعمه هذا "المستعمر" – "الطفرة القميئة في تاريخ الإنسانية، القادِم بدايةً مُمَوَّهاً بثياب اللاجئ، بل هي أرض بلا شعب، وقومُه، الذين جاؤوا من كل حدب وصوب، شعب بلا أرض، ولذلك فإن عليه أن يُطهِّرها من ساكنيها، أو يُنكِر وجودهم أصلاً، حتى يُبعد عن نفسه شُبهةَ استعمارها، إنه يعمر صحراء قاحلةً ويحوّلها إلى جنة موعودة، فيؤدي بذلك رسالة إلهية، إذ يجمع فيها كل المنفيين من يهود العالم لتكون وطناً قومياً، وعدهم الله بها منذ الأزل، وأكّد لهم هذا الوعد اللورد بلفور عام ١٩١٧. إنهم يستعيدون "أرض إسرائيل"، إذ يعودون إليها بعد نفيهم لقرون منها. هذا هو هدفهم. غير أن عليهم، حتى يكفلوا النجاح في تحقيقه، أن يوظفوا المعرفة الاستشراقية، والمعرفة قوّة، مظلّة يستظلون بها في مسعاهم لاستئصال سكانها الأصليين، ويعمّون ضحاياهم عن هذا المسعى.

ويبدو أن ثمة فئة قليلة، أو أفراداً، اختاروا لغاية في أنفسهم، ولحوافز قبلوا بها، أن يكونوا مُنتجين لضرب منها يُرضي سادَتهم وسادَتها. وأكثر من هذا فإنهم اختاروا لأنفسهم إنتاج ذلك الضرب المُضمَر latent من الاستشراق، ضرب غير مباشر ولكنه مُبتذَل في آن معاً، لأن أصحابه تخلّوا عن هدف السعي المعرفي، وهو بلوغ الحقيقة، لصالح قضية مفبركة أريد لها أن تكون المظلة التي تغطي جريمة التطهير العرقي التي ارتكبوها بمساعدة الاستعمارين القديم والجديد.

وإذا ما تطرّق الحديث إلى تاريخ مدينة "القدس"، التي أجمع العالم كله على أنها إحدى أقدم مدنه وأقدسها، وأنها بالنسبة للمسلمين أولى القبلتين، وثالث الحرمين، فضلاً على أنها كانت مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها تضم مسجد قبة الصخرة التي عرج منها إلى سدرة المنتهى، فإنه في محاولة للتشكيك في طابع المدينة الإسلامي، وزعزعة انتمائها العربي، يقصر الحضور العربي الإسلامي فيها على فترة قصيرة لا تتجاوز أربعة قرون، ومن ثَمَّ فإنها تكاد ألّا تُذكر على نحو جدي في مسيرة تاريخها الطويل الممتد خمسة آلاف عام أو يزيد، من بُناتها الأوائل (اليبوسيين) وحتى استسلامها لصلاح الدين الأيوبي في ١٩ من شهر أيلول / سبتمبر عام ١١٨٧، وإخلائها تماماً من جانب الفرنجة في ١٠ تشرين الثاني من العام نفسه، بعد احتلالها ثمانية وثمانين عاماً. وهو ما نجده في أحدث تاريخ للمدينة ظهر في كتاب نشرته مطبعة جامعة أكسفورد في آذار الماضي من هذا العام ٢٠٢٤، وحمل عنوان: القدس خلال العصور من بداياتها إلى حروب الفرنجة، لجودي ماغنس، أستاذة اليهودية المبكرة في جامعة نورث كارولاينا، في تشابل هيل. فهذا الكتاب، الذي يقع في ٦٢٤ صفحة، موزع على مدخل وأحد عشر فصلاً وخاتمة وملحق (أريد له أن يكون ترويجاً لزيارة المدينة المقدسة لغير العرب والمسلمين، بمن فيهم الفلسطينيون أصحاب الأرض السليبة) خصص خمسة منها لمستكشفي المدينة المقدسة من علماء الآثار الغربيين، ولاسيما اليهود الصهاينة منهم، ولأربع فترات قصيرة نسبياً ساد فيها بنو إسرائيل واليهود، في حين لم يظفر اليبوسيون، أو الكنعانيون، الذين عمروا المدينة بعد تأسيسها نحوا من ألفي عام، وكذلك المسلمون الذين سادوا فيها نحوا من أحد عشر قرناً، إلا بفصلين، غلبت على إنشائهما المصطلحات والأسماء العبرية والمستمدة من التوراة، حتى في الفترة اليبوسية الممتدة ألفي عام أو يزيد.

ومما يلاحظه المرء من خلال ما تقدم من إيجاز عن كتاب ماغنس، وأنه على الرغم من أن الأدلة الموثقة على بناء مدينة القدس على أيدي اليبوسيين / الكنعانيين، الذين عمروها، كما تقدم، نحوا من ألفي عام، وعلى الرغم من الحضور العربي الإسلامي فيها نحوا من أربعة قرون قبل غزو الفرنجة، ونحوا من سبعة قرون بعد دحرهم منها، مما هو مُقَرّ به على نحو واسع في أوساط كبار العلماء المختصين، بل مما هو مجمع عليه حتى في الأوساط العلمية الغربية، فإن نزعة التمركز حول الذات الغربية، والعنصرية، تغري بعض متعاليها بمحاولة الالتفاف على حقائق التاريخ الحضاري الإنساني، واختزال حضور "الآخر"، وهو "الأنا" المؤسس للمدينة ومن عمرها ألفي سنة، والعربي/ المسلم بشكل خاص، إلى مجرد حضور محدود متواضع، وذلك بوضعه في إطار واسع جداً، يُضائل من شأنه لصالح جهات، أو أطراف، أو أمم أخرى، وعندها يكتفي بذكره على طريقة "مرور الكرام".

الترامبية.. مخاوف وتحديات

ريا خوري

عندما ظهرت نتيجة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتمّ الإعلان عن فوز الرئيس السابق دونالد ترامب، بدأ العالم من جديد في إعادة ترتيب سياساته وقراءاته الجديدة لمجريات السياسة العالمية، فهذه المرة سيعود ترامب إلى البيت الأبيض حاملاً معه العديد من المشاريع الداخلية والعالمية، حيث اختلف العالم كثيراً عما كان عليه قبل أربع سنوات حين جرت إزاحة الرئيس ترامب من البيت الأبيض في انتخابات (٢٠٢٠).

اليوم يتمّ طرح العديد من التساؤلات الحرجة على دول الإقليم ودول العالم عن حدود التغيير والتحوّل المتوقع في سياسات الولايات المتحدة، فدول الاتحاد الأوروبي ينتظرون القادم من مواقف ترامب وتحديداً حالة التقلبات والتحولات الجوهرية النوعية في الحرب الساخنة في أوكرانيا، واستحقاقات وتبعات ما ستخلفه الولايات المتحدة الأمريكية تجاه حلف شمال الأطلسي (الناتو) بعد أن تتخلّى عن حماية أوروبا، وما هي حالة الأمن الاستراتيجي الأوروبي، وطبيعة علاقة الولايات المتحدة مع أوروبا؟.

وفي سياق كهذا لم ننسَ دعوة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون لتشكيل قوة دفاع مشترك أوروبية تعتمد على ضمان الدفاع عن نفسها، وضمان أمنها الاستراتيجي. تلك الدعوة لم تكن مستحدثة بالنسبة لتوجهاته السياسية بعد صعود ترامب مجدداً، ودخوله إلى البيت الأبيض، فقد تبناها وألحَّ عليها أثناء فترته الرئاسية الأولى من ٢٠١٦–٢٠٢٠، حيث كان يضغط ترامب بشدَّة على بلدان حلف شمال الأطلسي (الناتو) لكي تزيد من نسبة مساهمتها في ميزانية الحلف، وإلّا فإنَّ الولايات المتحدة لن تدافع عنها، بل ستتركها فريسة أمام الدب الروسي.

أما في الحالة الأوكرانية، فقد دعا ترامب غير مرة في أثناء حملته الانتخابية إلى عواقب الحرب في أوكرانيا، مؤكداً أن تلك الحرب يجب أن تتوقف بعد تفاهم منفرد مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، من دون أخذ مخاوف الدول الأوروبية في الاعتبار. كما كان تأثير هذا الموقف سلبياً للغاية بالنسبة إلى الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلينسكي الذي دعا إلى (السلام من خلال القوة)، كان ذلك تعبيراً ملتبساً يعكس مدى قلقه الشديد من أيّة تحوّلات دراماتيكية مفاجئة عسكرياً وأمنياً وسياسياً على المسرح الأوكراني.

من جهتهم لم يتردّد القادة الأوروبيون الآخرون عن التعبير بأسلوب آخر عن حالات القلق المسيطرة عليهم، خاصة وأنّ ترامب تعهّد بإنهاء الحرب في أوكرانيا بمجرد التواصل مع الرئيس بوتين. وعليه فإن قضية الحرب الأوكرانية تتعلق بشكل أساسي في مستقبل النظام الدولي الذي يعاني من اهتزازات بنيوية بتأثير أكبر حربين متزامنتين واحدة في الشرق الأوسط والأخرى في أوروبا.

لقد استثمر ترامب فشل جو بايدن ونجح في الفوز بأريحية وسهولة لم تكن متوقعة، حيث كسب إلى صفه

مجموعات عريضة وواسعة من الأمريكيين السود على الرغم من سجله السلبي تجاههم، كما نجح في اجتذاب كتل، ومجموعات سكانية محافظة خارج نطاق حزبه الجمهوري، أقلقها تركيز منافسته على الحريات الجسدية بمن فيهم الجاليات العربية والمسلمة. كانت المفارقة الكبيرة والأفدح هي توزع الصوت العربي والإسلامي بين المرشحين ترامب وكمالا هاريس بذريعتين مختلفتين، أحدهما بالتصويت العقابي ضد إدارة بايدن ونائبته هاريس لدورهما في الحرب على غزة والتواطؤ الكامل بحرب الإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطيني. وثانيهما، بالرهان على أن يلتزم ترامب بوعده الانتخابي، الذي أطلقه بولاية ميشيغان المتأرجحة، بإنهاء الحرب الدائرة في قطاع غزة ولبنان، فهل يفعلها؟.